

تَسْلِيَةُ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ - دراسة تحليلية

د. سعيد عمر عبود بن دحياج

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

كلية التربية - جامعة حضرموت للعلوم

والتكنولوجيا

يهدف هذا البحث لدراسة تسليية الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن باعتبارها مقصداً من مقاصد تنزل القرآن الكريم ، وقد دعا لدراسة هذا الموضوع الكثرة في الآيات التي جاءت بهذا الصدد ، وقد تناول البحث التعريف بمفهوم التسليية وموقع تسليية الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من الطرح القرآني ، كما تناول دواعي تسليية الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وكذا وجوه تلكم التسليية وصورها ، وقد خلص البحث إلى جملة من النتائج أهمها أن التسليية عما يصاب به المسلم عموماً والدعاة إلى الله ومبلغو دينه خصوصاً مطلب لا بد منه ، وإذا كان نبي الله صلى الله عليه وسلم المؤيد بوحى الله الممتلىئ يقينا من نصر الله وتأييده قد سلاه ربه وخفف عنه وتنزلت الآيات على قلبه تباعاً لهذا الغرض فإن هذا يتأكد في حق غيره من باب أولى ، وكتاب الله هو المعين الذي لا ينضب والمشرّب الذي يقصد لتطلب هذه المعاني واستلهاها .

الملخص

7

مقدمة

الحمد لله القائل سبحانه : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٨٣) ،^١ والقائل أيضاً : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۗ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ (٣٢) ،^٢ والصلاة والسلام على أشرف خلق الله نبينا محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فإن الله أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وابتعثه على حين فترة من الرسل حين عم ديجور الظلام واستحكم أمر الكفر والضلال في النفوس فصارت جلاميد قاسية وصحاري خاوية ، بعثه الله سبحانه ليخرج الناس من ظلمات الكفر والمعصية إلى نور الإيمان وظل الطاعة ويرد اليقين وكان ذلك بعد توالي قرون من الجهالة والضلالة التي صبغت النفوس والأرواح والعقول بخصال البغي وأخلاق والظلم .

لقد كان من الطبيعي أن يكون طريق الدعوة وهداية الناس والعودة بهم إلى ربهم آنذاك محفوفة بالعقبات والصعاب والتحديات المختلفة ولكن كان لابد من ركوب الأخطار ومواجهة العراقيل والتصبر على مرارتها وبأسها والتصدي لها .

وكان من مقتضى رحمة الله وحبه للداعية الأول صلى الله عليه وسلم ورأفته به إشعاره بقربه دائماً في جميع مراحل دعوته وسعيه لإبلاغ كلمته للناس .

ولأنه سبحانه قد علم أن حبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم سيعترضه في سبيل دعوته ما يحزن له الفؤاد ، ويغتم له القلب وتتهاوى عنده القوى ، وتخور العزائم ، لما علم سبحانه ذلك رأيناه يسلك مع حبيبه المصطفى نهج التسلية له عما يصيبه وتصبيره على ما يلقاه وتثبته على دربه وطريقه بما يقوي عضده ويشد جنباه صلى الله عليه وسلم.

وإن المتأمل والمستقرئ لآيات الكتاب العزيز يجد القرآن زاخراً بالشيء الكثير من صور ووجوه التسلية المشار إليها آنفاً .

^١ - سورة الإسراء ٨٣ .

^٢ - سورة الفرقان ٣٢ .

وقد لفتت كثرة مواضع تسلية الله في كتاب الله لحبيبه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم نظر الباحث فأراد أن يتناول هذه الظاهرة في كتاب الله المجيد فجاءت هذه الدراسة في مقدمة وثلاثة مباحث كالتالي :

المبحث الأول: مفهوم التسلية وموقع تسلية الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من مقاصد تنزل القرآن عليه وتضمن مطلبين:

المطلب الأول : مفهوم التسلية في اللغة .

المطلب الثاني : تسلية الله لنبيه أحد المقاصد الرئيسية لتنزل القرآن الكريم.

المبحث الثاني: دواعي تسلية الله لنبيه صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثالث : وجوه تسلية الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في كتابه سبحانه.

ومما يجدر التذكير به أن الباحث لا يهدف من تناوله لهذا الموضوع أن يستوعب المواضع والآيات التي جاءت فيها تسلية من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ويحصرها ولكنه يهدف إلى دراسة صور من هذه التسلية ووجوهها ومقتضياتها ، من خلال الوقوف على نماذج ومواضع مختارة من هذا الكم الهائل من الآيات في هذا السياق ومن هذا القبيل دراسة تحليلية .

يمكن تلخيص الدوافع التي اقتضت تناول هذا الموضوع في ما يلي :

١ - كثرة المواضع التي وردت في كتاب الله متضمنة التسلية للحبيب محمد صلى الله عليه وسلم والتي لفتت بكثرتها نظر الباحث ليختارها مادة للدراسة والبحث.

٢ - كشف اللثام عن وجه من وجوه العلاقة والمحبة بين الله وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم والمتمثلة في تسليته الدائمة ومؤازرته وتثبيت فؤاده وهو يبشر بكلمة الله ويحمل راية الهداية لخلق الله.

٣ - لفت أنظار الدعاة الآتين بعد محمد صلى الله عليه وسلم والسالكين دربه والحاملين لوائه إلى مخزون عظيم ومادة لا تنفذ من التسلية عند حلول المصائب والبلايا وتعرضهم لمختلف أصناف الصد والبغي والإيذاء خاصة في هذه الأزمنة التي تكاثرت فيها على الدعاة الفتن والمحن وتكالتب عليهم الرزايا .

المبحث الأول

مفهوم التسلية وموقع تسلية الله لنبِيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

من مقاصد تنزُّلِ القرآنِ عليه

المطلب الأول : مفهوم التسلية في اللغة :

التسلية مصدر من تسلى يتسلى تسلية ، وأصل الفعل سلا يقال : (سَلَا فلانٌ عن فلانٍ يَسْلُو ، وتَسَلَى ، وسَلِيَ عنه سلواً وسلياً ، وسَلِيَتْه ، وسَلَوْتُ عنه . وإنه لَفِي سَلْوَةٍ من العَيْشِ : أي فِي رَعْدٍ يُسْلِيهِ الهم . والسُلوانُ والسُّلُوَةُ : ما يُتَسَلَى به . وما سَلَيْتُ : أي ما لَهَيْتُ)^١ وقال في مختار الصحاح : (سَلَا عنه من باب سما و سَلِيَ عنه بالكسر سُلِيًّا مثله .. و سَلَاهُ من همه تَسْلِيَةً و أسْلَاهُ أي كشفه عنه و السُّلوانَةُ بالضم خرزة كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا، واسم ذلك الماء السُّلوانُ بالضم أيضاً، وقيل السلوان دواء يسقاه الحزين فيسلو، والأطباء يسمونه المفرح)^٢. والمعاني المضمنة في مادة لفظ (سلا يسلو سلواً وسلواناً) ومشتقاتها هي النسيان للشيء والتخفيف من همه وعدم الاكتراث به ، وانكشاف الحزن والهم ٣. وقد أكثر العرب من ذكر السلوان والتسلي في شعرهم ونثرهم وغالباً ما يأتي ذكر هذا في أشعار الغزل وأحوال المحبين يقول يعقوب بن الربيع ٤: **زعموا أن من تشاعل بالله وسلا عن حبيبه وأفاقا**

كلما رمت سلوة، تذهب الحررة، زادت قلبي عليك احتراقا

ويقول ابن الرومي ٥ من الخفيف : **إن من ساء الزمان بشيء لأحق الورى بأن يتسلى ٦**

- ١ - المحيط في اللغة للصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني، ط: عالم الكتب - بيروت / لبنان - ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م الطبعة الأولى تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ٨ / ٣٧٨ .
- ٢ - مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ط: مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م تحقيق: محمود خاطر
- ٣ - ينظر: لسان العرب لابن منظور طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان ١٤١٣هـ، نسقه وعلق عليه مكتب تحقيق التراث ٦ / ٣٥١ .
- ٤ - يعقوب بن الربيع بن يونس : شاعر ظريف، بغدادي كان لا يزيد في شعره على البيتين أو الثلاثة، وفي (الكامل) للمبرد، مختارات لطيفة منه. توفي نحو ١٩٠ هـ (ينظر : الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين لخير الدين الزركلي ، طبعة دار العلم
- ٥ - ابن الرومي : علي بن العباس بن جريح، أو جورجيس، الرومي، أبو الحسن، شاعر كبير، من طبقة بشار والمتنبي، رومي الاصل، كان جده من موالي بني العباس، ولد ونشأ ببغداد، ومات فيها سنة ٢٨٣ هـ (ينظر : البداية والنهاية لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء ، طبعة مكتبة المعارف - بيروت ٧٤/١١ ، سير اعلام النبلاء لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة ١٣ / ٤٩٥ ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر - بيروت ٣ / ٣٥٨ ، الاعلام للزركلي ٤ / ٢٩٧).
- ٦ - زهرة الآداب وثمرة الأبواب لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م الطبعة الأولى تحقيق : د. يوسف على طويل ٢ / ٣٧٧ .

المطلب الثاني

تسليّة الله لنبيه أحد المقاصد الرئيسية لتنزل القرآن الكريم

من المقرر أن للقرآن الكريم مقاصد كلية وأغراضاً عامة تعد هي الغايات الأساسية لنزوله من لدن حميد مجيد، وهذه الغايات والمقاصد الأصلية للذكر الحكيم يستطيع المستقرئ المتأمل لسور القرآن وآياته أن يقف عليها ، وهذا مبحث مشهور تناوله لدى أهل العلم بالتفسير ومقاصد التشريع ، والعلماء في استقراءهم لهذه المقاصد أو كما يسميها البعض الكليات للقرآن وتقريرهم لها ربما اختلفوا في التعبير عنها وتقسيمها والذي يظهر أن الخلاف في هذا الجانب لا يخرج في الغالب عن أن يكون خلافاً صورياً ولفظياً.

وإذا كانت منهجية أهل العلم لاستنباط الكليات التي جاء القرآن بتناولها وتقريرها تعتمد طريقة الاستقراء لآيات القرآن؛ فإن المستقرئ المتأمل للكتاب العزيز يجد بشكل جلي وواضح ومقصود مجيء كثير من الآيات بل بعض السور بأكملها مسلية لفؤاد النبي صلى الله عليه وسلم ومثبتة له على دعوته لما كان يتعرض له إبان دعوته وفي جميع مراحل سيرها من اضطهاد وابتلاء وأذى ، وهذه الكثرة من الآيات ربما هي التي دفعت بمفسر محقق جهيد كابن جزى ١ إلى أن يعد تسليّة النبي صلى الله عليه وسلم أحد مقاصد وغايات تنزل القرآن الكريم.

يقول العلامة المفسر ابن جزى : (الثالث : أن أخبار الأنبياء قصد بذكرها مقاصد فتعدد ذكرها بتعدد تلك المقاصد ... ومنها تسليّة النبي صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه له بالتأسي بمن تقدم من الأنبياء كقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأُذُوا حَتَّى أَنهَمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَل لِّكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّ الْأَمْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ^٢ ومنها تسليته عليه السلام ووعده بالنصر كما نصر الأنبياء الذين من قبله ومنها تخويف الكفار بأن يعاقبوا كما عوقب الكفار الذين من قبلهم إلى غير ذلك مما احتوت عليه أخبار الأنبياء من العجائب والمواعظ)٣.

١ - ابن جزى : محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزى الكلبي، أبو القاسم: فقيه من العلماء بالأصول واللغة. من أهل غرناطة. من كتبه " القوائين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية و " تقريب الوصول إلى علم الأصول " و " التسهيل لعلوم التنزيل، و " الانوار السننية في الالفاظ السننية ، عاش في الفترة ٦٩٣ - ٧٤١ هـ. ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة لأبي عبد الله بن سعد بن أحمد السلماني، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - ٢٠٠٣ هـ - ١٤٢٤ هـ تحقيق: د. يوسف علي طويل ٣ / ١٠).

٢ - سورة الأنعام ٣٤.

٣ - التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزى الكلبي، طبعة مكتبة مشكاة الإسلامية ١٠/١.

وقريباً من قول ابن جزى قول الزرقاني ١ : (لتنجيم نزول القرآن الكريم أسرار عدة وحكم كثيرة نستطيع أن نجعلها في أربع حكم الحكمة الأولى تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وتقوية قلبه ٢٠٠) ، ثم تحدث عن تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم من عدة وجوه.

لقد جاءت آيات في كتاب الله مصرحة بهذا المعنى المذكور ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ ٣ ، يقول القاسمي ٤ : (تقويته به على القيام بأعباء الرسالة ، والنهوض لنشر الحق بين قادة الجهالة ؛ فإن ما يتواتر إنزاله لذلك ، أبعث للهمة وأثبت للعزيمة وأنهض للدعوة ، من نزوله مرة واحدة) ٥ .

هذا الخطاب وما يماثله وإن كان المخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم ابتداءً إلا أنه من المقرر والمعروف أنه منهج أمة يراد لها أن تتجاوز هي أولاً مواطن ضعفها وتتغلب على جوانب القصور في تربيتها وبنائها كما يراد لها أن تبشر بهذه الرسالة وتحمل هذه الدعوة والراية في جميع الأرجاء وتخوض غمار المدافعة للباطل والنشر بكل صوره وتعد نفسها للتعاطي مع أسوأ الاحتمالات صبراً على المكاره وثباتاً على المبادئ وتوضيحاً في سبيلها ، والزمن جزء من العلاج والتربية والصقل في مثل هذه المراحل (والنفس البشرية لا تتحول تحولاً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد . إنما تتأثر يوماً بعد يوم بطرف من هذا المنهج؛ وتتدرج في مراقبه رويداً رويداً ، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئاً فشيئاً ، فلا تجفل منه كما تجفل لو قدم لها ضخماً ثقيلاً عسيراً) ٦ ، وتحقيق هذه المقاصد تتطلب منهجية واضحة المعالم بينة المسالك وبحمد الله (قد جاء القرآن بمنهاج كامل شامل للحياة كلها . وجاء في الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية عن علم بها من خالقها . فجاء لذلك منجماً وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة ، وهي في طريق نشأتها

١ - الزرقاني : محمد عبد العظيم الزرقاني ، من علماء الأزهر بمصر ، و تخرج بكلية أصول الدين ، وعمل بها مدرسا لعلوم القرآن والحديث و توفى بالقاهرة سنة ١٩٤٨م من كتبه مناهل العرفان في علوم القرآن (ينظر : الأعلام للزركلي / ٦ / ٢١٠) .

٢ - مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م دار الفكر - بيروت تحقيق : مكتب البحوث والدراسات ٣٩ / ١ .

٣ - سورة الفرقان ٣٢ .

٤ - القاسمي : جمال الدين القاسمي بن محمد سعيد بن قاسم إمام الشام في عصره، علما بالدين، وتضلعا من فنون الادب. مولده ووفاته في دمشق. له مصنفات كثيرة منها (دلائل التوحيد) و (موعظة المؤمنين) اختصر به إحياء علوم الدين للغزالي، و (إصلاح المساجد من البدع والعوائد) و (قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث) و (محاسن التأويل) في تفسير القرآن الكريم . ولد سنة ١٢٨٣ هـ وتوفي سنة ١٣٢٢ هـ (ينظر : الأعلام للزركلي / ٢ / ١٣٥) .

٥ - محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي ، الطبعة الثانية ١٩٧٨م دار الفكر - بيروت ، وقف على طبعه وتحقيقه محمد فؤاد عبد الباقي ٢٦٠ / ١٢ .

٦ - في ظلال القرآن لسيد قطب ، طبعة رقم ٢٤ سنة ١٩٩٥م دار الشروق (٥ / ٢٦٦٢) .

ونموها . ووفق استعدادها الذي ينمو يوماً بعد يوم في ظل المنهج التربوي الإلهي الدقيق . جاء ليكون منهج تربية ومنهج حياة لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ بمجرد اللذة أو لمجرد المعرفة . جاء لينفذ حرفاً حرفاً وكلمة كلمة ، وتكليفاً تكليفاً^١ .

يقول البغوي ٢ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (٣) : (أي: أنزلناه متفرقاً ليقوى به قلبك) ٤ ؛ وذلك (أنه كلما نزل عليه شيء من القرآن ازداد طمأنينة وثباتاً وخصوصاً عند ورود أسباب القلق فإن نزول القرآن عند حدوث السبب يكون له موقع عظيم وتثبيت كثير أبلغ مما لو كان نازلاً قبل ذلك ثم تذكره عند حلول سببه) ٥ ، وكان ريبك يتعهذك بالرعاية والتأييد من خلال إنزال آياته عليك فكلما تعرضت لموقف من هذه المواقف نزل القرآن تسلياً لك وتثبيتاً وصليةً بالسماء لا تنقطع . ولو نزل القرآن مرة واحدة لكان التثبيت مرة واحدة، ثم تأتي بقية الأحداث بدون تثبيت، ولا شك أن الصلة بالسماء تُقوي المنهج وتُقوي الإيمان .

يقول سيد قطب ٦ : (قد حقق القرآن بمنهجه ذاك خوارق في تكييف تلك النفوس التي تلقت مرتلاً متتابعاً ، وتأثرت به يوماً يوماً ، وانطبعت به أثراً أثراً . فلما غفل المسلمون عن هذا المنهج ، واتخذوا القرآن كتاب متاع للثقافة ، وكتاب تعبد للتلاوة ، فحسب ، لا منهج تربية للانطباع والتكيف ومنهج حياة للعمل والتفنيذ . لم

١ - المرجع السابق (٥ / ٢٦٦٢) .

٢ - البغوي : أبو مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنِ بْنِ مَسْعُودٍ بْنِ مُحَمَّدِ الشَّيْخِ، الْإِمَامِ، الْعَلَمَةُ، الْقُدْوَةُ، الْحَافِظُ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ، مُحْيِي السُّنَّةِ، أَبُو مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنِ بْنِ مَسْعُودٍ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الرَّءَاءِ الْبَغَوِيِّ، الشَّافِعِيِّ، الْمُسَرِّ، صَاحِبُ النَّصَائِفِ، كَاشِرُ السُّنَّةِ (وَمَعَالِمُ التَّنْزِيلِ) وَالْمَصَابِيحِ، وَكُتَابُ (التَّهْدِيدِ) فِي الْمَذْهَبِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ الصَّحِيحَيْنِ، وَالْأَرْبَعِينَ حَدِيثًا) وَكَانَ الْبَغَوِيُّ يَلْتَبُّ بِمُحْيِي السُّنَّةِ وَيُرَكِّنُ الدِّينَ، وَكَانَ سَيِّدًا إِمَامًا، عَالِمًا عَالِمًا، زَاهِدًا قَانِعًا بِالْيَسِيرِ، لَهُ الْقَدَمُ الرَّاسِخُ فِي التَّفْسِيرِ، وَالْبَاحُ الْمَدِيدُ فِي الْفِقْهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - . ثُوْفِي: بِمَرُو الرُّودِ -، وَعَاشَ بَضْعًا وَسَبْعِينَ سَنَةً - رَحِمَهُ اللَّهُ - (ينظر : سير اعلام النبلاء للذهبي ١٩ / ٤٣٩ ، طبقات الشافعية الكبرى للعلامة تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي ، الطبعة : الثانية ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع - ١٤١٣هـ تحقيق : د. محمود محمد الطناحيد. عبد الفتاح محمد الحلو ٧ / ٧٥) .

٣ - سورة الفرقان ٣٢ .

٤ - معالم التنزيل لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى ٥١٦هـ ، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش ، طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م (٦ / ٨٣) .

٥ - تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي ، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحي طبعة مؤسسة الرسالة ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م ص ٥٨٢ .

٦ - سيد قطب : الأديب الشهيد سيد قطب إبراهيم ، صاحب تفسير (في ظلال القرآن) ، ولد في قرية من قرى الصعيد اسمها (موشه) سنة ١٩٠٦م و يعتبر من كبار قادة و منظري الحركة الإسلامية المعاصرة .. أعدم في عهد الهالك جمال عبدالناصر في ٢٦ "اغسطس" من عام ١٩٦٦م رحمه الله (من اعلام الحركة الإسلامية المعاصرة ، للمستشار عبد الله العقيل ، ط ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م مكتبة المنار الإسلامية - الكويت ص ٦٤٩ ، عملاق الفكر الإسلامي الشهيد سيد قطب للشيوخ الدكتور عبد الله عزام رحمه الله ، الطبعة الأولى - نشر وتوزيع : مركز شهيد عزام الإعلامي ، بيشاور - باكستان) .

ينتفعوا من القرآن بشيء ، لأنهم خرجوا عن منهجه الذي رسمه العليم الخبير . . ويمضي في تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم وتطمينه على إمداده بالحجة البالغة كلما فتحوا له باباً من الجدل ، وكلما اقترحوا عليه اقتراحاً ، أو اعترضوا عليه اعتراضاً ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَمْسِيرًا ﴾ (١) . ٢ .

وبناء على ما سبق لعننا نستطيع القول بأن الآيات الجملة الواردة بتسليّة الله لنبيه صلى الله عليه وسلم هي أشبه ما تكون بإنجاز لما ورد من وعد بتثبيت قلبه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ (٣) .

إن تسليّة الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بواسطة القرآن مقصد يحوي عدة مقاصد تنبثق عنه تلقائياً منها:

- تقوية اليقين في قلب النبي صلى الله عليه وسلم (فكلمًا نزل شيء من الوحي قوي القلب ، وازداد اليقين ، حتى يصير إلى عين اليقين وحق اليقين)٤.

- أن كثرة نزول القرآن أوجب لسكون قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكمال رُوحه ، ودوام أُنسه صلى الله عليه وسلم ، فالمعنى : (لنثبت فؤادك باتصال الوحي ومدائمة نزول القرآن ، فلا تصير بانقطاع الوحي مستوحشاً)٥.

- كون جبريل يأتيه في كل وقت بما يقتضيه ذلك الوقت من الكوائن والأمر الحادثة ، فإن ذلك أبلغ في كون القرآن معجزة ٦.

وعلى كل حال فإن (إنزال القرآن منجماً فضيلة خص بها نبينا عليه السلام من بين سائر النبيين فإن المقصود من إنزاله أن يتخلق قلبه المنير بخلق القرآن ويتقوى بنوره ويتغذى بحقائقه وعلومه وهذه الفوائد

١ - سورة الفرقان ٣٣.

٢ - في ظلال القرآن لسيد قطب ٥ / ٣١٧ .

٣ - سورة الفرقان ٣٢.

٤ - البحر المديد لأحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسيني الإدريسي الشاذلي الفاسي الطبعة الثانية / ٢٠٠٢ م ١٤٢٣ هـ ، دار الكتب العلمية . بيروت / ١٩٨ ، وينظر : الإتقان في علوم القرآن ل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤ م ١ / ١٥١ .

٥ - النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ، تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ٤ / ١٤٤ ، وينظر : بحر العلوم لأبي الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي طبعة دار الفكر - بيروت تحقيق: د. محمود مطرجي ٢ / ٥٣٧ .

٦ - ينظر : البحر المديد لابن عجيبة ٥ / ١٩٨ .

إنما تكمل بإنزاله مضرقاً ، ألا يرى أن الماء لو نزل من السماء جملة واحدة لما كانت تربية الزروع به مثلها إذا نزل مضرقاً إلى أن يستوي الزرع)١.

المبحث الثاني

دَوَاعِي تَسْلِيَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يتناول هذا المبحث جملة من الدواعي التي اقتضت مجيء التسلية في آيات الكتاب العزيز للنبي صلى الله عليه وسلم وبعض المواقف والأحوال التي استدعت تنزل القرآن من لدن الرب الرؤوف الرحيم بحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم مخفضاً عنه ومثبثاً له ومسلياً له.

الداعي الأول: استهزاء المشركين به وسخريتهم منه :

ومن الآيات التي جاءت بذكر ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمَا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ، وقوله ﴿ ٢ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٣﴾ ﴾ ٣ ، يقول الطبري ٤ : (يقول تعالى ذكره لنبية محمد صلى الله عليه وسلم، مسلياً عنه بوعيده المستهزئين به عقوبة ما يلقي منهم من أذى الاستهزاء به، والاستخفاف في ذات الله: هُوْنٌ عَلَيْكَ، يَا مُحَمَّد، مَا أَنْتَ لَاقٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِكَ، الْمُسْتَخْفِينَ بِحَقِّكَ فِي وِفِّي طَاعَتِي، وَامْضِ لِمَا أَمَرْتُكَ بِهِ .. فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَادَوْا فِي غَيْبِهِمْ، وَأَصْرَرُوا عَلَى الْمَقَامِ عَلَى كَفْرِهِمْ، نَسَلِكُ بِهِمْ سَبِيلَ أَسْلَافِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ مِنْ غَيْرِهِمْ، مِنْ تَعْجِيلِ النِّقْمَةِ)٥.

١ - تفسير روح البيان لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوئي طبعة دار النشر / دار إحياء التراث العربي ٦ / ١٥٢ .

٢ - سورة الأنعام ١٠ ، سورة الأنبياء ٤١ .

٣ - سورة الرعد ٣٢ .

٤ - الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، المؤرخ المفسر الإمام ، و لد في آمل طبرستان ، واستوطن بغداد وتوفي بها له " أخبار الرسل والملوك يعرف "بتاريخ الطبري" و جامع البيان في تفسير القرآن وتوفي سنة ٣١٠ هـ (طبقات المفسرين للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي راجع وضبط الطبعة لجنة من العلماء بإشراف من الناشر ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م ١١٠/٢ ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٥ م ط ١ تحقيق : الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ٦/٩٠ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/١٩١) .

٥ - جامع البيان في تأويل القرآن لأبي جعفر الطبري محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، تحقيق : أحمد محمد شاكر الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م مؤسسة الرسالة ١١ / ٢٧١ .

والاستهزاء والسخرية من دعاة الحق مسلک معهود من المعاندين المحادين لله ورسله ودعوته ؛ فقد استهزأ قوم نوح به عليه السلام قال تعالى : ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُونَ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ١ ، واستهزأت عاد بهود عليه السلام حيث قالوا: ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧٧﴾ ٢ ، واستهزأت ثمود بصالح عليه السلام قال تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾ ٣ ، واستهزأوا بشعيب عليه السلام ﴿ قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ٤ ، واستهزأ فرعون بموسى عليه السلام فقال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ٥ .

الداعي الثاني : تكذيب قومه له :

ومن الآيات التي جاءت بذكر ذلك : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا ﴿٦﴾ قال أبو جعفر الطبري : (وهذا تسليية من الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وتعزية له عما ناله من المساءة بتكذيب قومه إياه على ما جاءهم به من الحق من عند الله) .٧ ويقول الشنقيطي ٨ في تفسير سورة الحج : (وذكر تعالى في هذه الآيات سبع أمم كل واحدة منهم كذبت رسولها: الأولى : قوم نوح .. والآيات الدالة على تكذيب قوم نوح لا تكاد تحصى في القرآن ، الثانية : عاد، وقد بين تعالى في آيات كثيرة أنهم كذبوا رسولهم هودا ، الثالثة : ثمود وقد بين تعالى تكذيبهم لنبيهم صالح في آيات كثيرة....)٩.

١ - سورة هود : ٣٨ .

٢ - سورة الشعراء : ١٨٧ .

٣ - سورة الأعراف : ٦٦ .

٤ - سورة هود : ٨٧ .

٥ - سورة الزخرف : ٥٢ .

٦ - سورة الأنعام : ٣٤ .

٧ - جامع البيان لأبي جعفر الطبري ١١ / ٣٣٥ .

٨ - الشنقيطي : محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي: مفسر من علماء شنقيط (موريتانيا).ولد وتعلم بها. واستقر مدرسا في المدينة المنورة ثم الرياض وتوفي بمكة له كتب، منها (أضواء البيان في تفسير القرآن) و (منع جواز المجاز) و (منهج ودراسات لآيات الاسماء والصفات) و (دفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب) و (آداب البحث والمناظرة) ولد سنة ١٣٢٥هـ وتوفي سنة ١٣٩٣ هـ (ينظر : الأعلام للزركلي ٦ / ٤٥) .

٩ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والنشر والتوزيع بيروت - لبنان ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م ٥ / ٢٦٧ .

يقول سيد قطب : (كلمات يقولها الله - سبحانه - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - . . كلمات للذكرى ، وللتسرية وللمواساة ، والتأسية . . وهي ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طريقهم واضحاً ، ودورهم محدداً ، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته ، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق . . .

إنها تعلمهم أن سنة الله في الدعوات واحدة . كما أنها كذلك وحدة . وحدة لا تتجزأ . . دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب ، وتتلقى أصحابها بالأذى (١٠).

ومن المواضع التي جاءت بذكر هذا الداعي من دواعي تسلية الله لنبيه صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ ٢ وقوله: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَىٰ آلِهِ اللَّهُ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾ ٣ ، وقوله: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ ﴾ ٤ ، وقوله: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا يَا بَأْسَاطٍ يُدْحِضُونَ بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾ ٥ ، وقوله: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ٦ ، وقوله: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ﴿١﴾ ﴾ ٧ .

الداعي الثالث : خصومة المشركين ومناصبتهم العداة له :

ومن المواضع التي جاءت بتقرير هذا المعنى : قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ ٨ يقول ابن كثير ٩ :

١ - في ظلال القرآن لسيد قطب ٢ / ١٠٧٧ .

٢ - سورة الحج ٤٢ .

٣ - سورة فاطر ٤ .

٤ - سورة ص ١٢ .

٥ - سورة غافر ٥ .

٦ - سورة ق ١٢ .

٧ - سورة القمر ٩ .

٨ - سورة الأنعام ١١٢ .

٩ - ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوين درع القرشي البصري ثم الدمشقي، أبو الفداء، عماد الدين، حافظ مؤرخ فقيه. من كتبه كتبه (البداية والنهاية) و (شرح صحيح البخاري) لم يكمله، و (طبقات الفقهاء الشافعيين) و (تفسير القرآن العظيم) توي في سنة ٧٧٤هـ (ينظر : الأعلام للزركلي ١ / ٣٢٠) .

يقول تعالى: وكما جعلنا لك - يا محمد - أعداءً يخالفونك، ويعادونك جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداءً فلا يحزنك ذلك)١.

وهذا الآية كما تقرر لزوم وجود أعداء للرسول من الجن والإنس فإنها تقرر كذلك تظاهر كلا الفريقين من شياطين الجن والإنس على هذه العداوة وتعاونهم في تلك المهمة الشيطانية المتمثلة في الإغراء والتزيين للباطل ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (قال مقاتل: إذا التقى شيطان الجن مع شيطان الإنس قال أحدهما للآخر إني أضللت صاحبك بكذا وكذا فأضل أنت صاحبك بكذا وكذا فذلك قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ ٢، (وهي ظاهرة ملحوظة في كل تجمع للشر في حرب الحق وأهله. . إن الشياطين يتعاونون فيما بينهم؛ ويعين بعضهم بعضاً على الضلال أيضاً! إنهم لا يهدون بعضهم البعض إلى الحق أبداً. ولكن يزين بعضهم لبعض عداة الحق وحرية والمضي في المعركة معه طويلاً)٣.

وجملة ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ جديرة بالتوقف عندها ملياً للتعرف التام على مسالك الشياطين في التغير بابن آم والتي منها التزيين وزخرفة القول ومن ثم الإيحاء والتلصص به وإدخاله على الإنسان من طرف خفي.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ إشارة إلى حقيقتين هامتين وثيقتي الصلة بقضية عداوة شياطين الإنس والجن للأنبياء وأتباع الأنبياء: أولاهما أن ما يصدر عن شياطين الإنس والجن من أذى ومكر وكيد للمؤمنين إنما يجري كل ذلك وفق إرادة الله تعالى المطلقة التي لا يخرج عنها أحد من خلقه، وإرادة الله الكونية السابقة التي يحكم بها كل مخلوق فلا يحدث حادث في كون الله إلا وقد قدره الله؛ هذا حتى لا يتعاطم شأن الشيطنة وأهلها من الفريقين في نفوس المؤمنين، والحقيقة الثانية: أن الله سبحانه حكمة بل حكما جمة يقف عليها من تطلبها وتأمل طبيعة العلاقة بين أهل الإيمان وبين أهل الإجمام والشيطنة، ومن أهم هذه الحكم تمحيص الصفوف وابتلاء أهل الإيمان ووضوح الخطوط الفاصلة بين الفريقين كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ٤.

١ - تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي تحقيق: محمود حسن الناشر: دار الفكر طبعة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م (٢/٢٠٣).

٢ - بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي ١ / ٤٩٤.

٣ - في ظلال القرآن لسيد قطب ٣ / ١٢٨.

٤ - سورة الأنعام: ٥٥.

يقول سيد قطب : (إن بروز المجرمين لحرب الأنبياء والدعوات يقوي عودها؛ ويطلعها بطابع الجد الذي يناسب طبيعتها . وكفاح أصحاب الدعوات للمجرمين الذي يتصدون لها مهما كلفهم من مشقة وكلف الدعوات من تعويق هو الذي يميز الدعوات الحققة من الدعاوى الزائفة؛ وهو الذي يمحص القائمين عليها ، ويطردهم الزائفين منهم؛ فلا يبقى بجوارها إلا العناصر المؤمنة القوية المتجردة ، التي لا تبتغي مغانم قريبة . ولا تريد إلا الدعوة خالصة ، تبتغي بها وجه الله تعالى) ١ .

وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ ٢ ، يقول الشوكاني ٣ : (هذا تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم والمعنى : أن الله سبحانه جعل لكل نبي من الأنبياء الداعين إلى الله عدوا يعاديه من مجرمي قومه فلا تجزع يا محمد فإن هذا دأب الأنبياء قبلك واصر كما صبروا) ٤ .

الداعي الرابع : ما يلقاه من تمسك المشركين بملة آبائهم من ديانة الشرك وتقليدهم إياهم في الضلال وقولهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ ٥ ، فليست هنالك من حجة يعتصمون بها ولا دليل يستندون إليه ولا صحيح عقل ولا صريح نقل يعتمدونه إنما مجرد التقليد لا غير (وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال) ٦ . والحقيقة أن المقام هنا يستدعي التأمل في جملة الآيات التي حكي في سياقها قولهم هذا ، حيث يقول الله: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾

١ - في ظلال القرآن لسيد قطب ٥ / ٣١٥

٢ - سورة الفرقان ٣١ .

٣ - الشوكاني : أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الشوكاني الخولاني ثم الصنعاني ، قاضي القضاة بصنعاء اليمن ، مفسر ، و محدث ، وفقه ، وأصولي ، ومؤرخ ، وأديب ، ونحوي ، ومنطقي ، و متكلم ، و حكيم . ولد بهجرة شوكان من بلاد خولان في ٢٨ ذي القعدة ١١٧٣هـ ، نشأ بصنعاء ، ولي القضاء بصنعاء سنة ١٢٢٩هـ ، و من تصانيفه الكثيرة : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، و إرشاد الضحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، و فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، ذكر صديق خان في أبجد العلوم أنه توفي سنة ١٢٥٥هـ ، و جاء في معجم المؤلفين أنه عام ١٢٥٠هـ ، و هذا هو الصحيح ، و هو مما استدركه العلامة أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي على صديق حسن خان في كتابه : نقد أوهم صديق حسن خان (ينظر : أبجد العلوم للعلامة صديق حسن خان ، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت ، و ١٩٧٨م ، تحقيق : عبد الجبار زكار ٢ / ١٨٧ ، و معجم المؤلفين لكحالة ١١ / ٤٤ ، و نقد أوهم صديق حسن خان المسمى إبراز الغي الواقع في شفاء العي ، للعلامة أبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي المتوفي سنة ١٣٠٤هـ ، تحقيق : صلاح محمد أبو الحاج ، و قدم له الشيخ وهبي سليمان غواجي الألباني ، ط١ دار الفتح للطباعة و النشر و التوزيع صفحة ٣٣ ، و ٨٢)

٤ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، طبعة دار الفكر بيروت / ١٠٦ .

٥ - سورة الزخرف ٢٣ .

٦ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ٣١٠ .

﴿١٣﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾ قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ : فمما يستوقف الناظر أن النص يشير إلى أن المترفين هم أصحاب هذه الحجة ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ (وتخصيص المترفين إشعار بأن التنعم وحب البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد) ١.

ومن الآيات التي جاءت بذكر هذا الداعي أيضا قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولُو كَانٍ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾﴾ ٢ .
الداعي الخامس : ما يصيبه صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم في الغزو :

قال تعالى : ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ وَثَلَّةٌ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيَمِخَصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ ٣ ، قال ابن عباس ٤ : (أصابهم يوم أحد قرح فشكوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما لقوا فنزلت هذه الآية) ٥ ، أي : إن أصابكم يوم أحد جراح : ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ﴾ أي : يوم بدر ، (وهذه المقابلة بما أصاب العدو يوم بدر تعين أن يكون الكلام تسلية وليس إعلاما بالعقوبة كما قاله جمع من المفسرين) ٦.

الداعي السادس : ما يقابل به من جراءة أهل الكتاب وغيرهم من طلبهم لمعجزات يقترحونها من لدنهم :

ومن الآيات التي جاءت بهذا المعنى قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْآيَاتُ

١ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل لأبي الخير ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشافعي ، مع حاشية محيي الدين زادة عليه ، ط: دار إحياء التراث - بيروت لبنان ١٤٣/٥ .

٢ - سورة المائدة ١٠٤ .

٣ - سورة آل عمران ١٤٠ ، ١٤١ .

٤ - ابن عباس : عبد الله بن عباس بن عبدالمطلب القرشي ، وابن عم الرسول -صلى الله عليه وسلم -حبر الأمة وترجمان القرآن ، و إمام التفسير ، دعا له الرسول ﷺ ، ولد بشعب بني هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين ، وتوفي سنة ٦٨ أو ٦٧ هـ (مشاهير علماء الأمصار للإمام محمد بن حبان البستي دار الكتب العلمية عني بتصحيحه م . فلايشهر ص ٩ ، و طبقات المفسرين للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي ، راجع وضبط الطبعة لجنة من العلماء بإشراف من الناشر طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط ١٩٨٣هـ ١٤٠٣م ٢٣٩/١ و الإصابة للحافظ أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار الجيل بيروت ١٤١٢هـ-١٩٩٢م ، ط ١ ، تحقيق : علي محمد الجاوي ١٤١/٤) .

٥ - زاد المسير في علم التفسير للإمام عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، ط المكتب الإسلامي بيروت سنة النشر ١٤٠٤هـ ١/ ٤٦٦ .

٦ - التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور للعلامة محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ ، الطبعة : الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان ٣ / ٣٠١ ..

﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا﴾ ١٥٣ ﴿١﴾ ، وقوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتٰبِ أَن تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ﴾ يعني جملة واحدة كما جاء به موسى عليه السلام ٢ ، والسائل هو كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء وغيرهم ، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : (إن كنت نبياً فاتنا بكتاب من السماء جملة ، كما أتى به موسى) ، قال تعالى في الرد عليهم : ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذٰلِكَ﴾ ؛ وهو رؤية ذات الحق - تعالى - جهراً حساً . والمعنى : إن استعظمت ما سألوكم فقد وقع منهم ما هو أعظم من ذلك ٣ .
الداعي السابع : إمهال الله للمشركين وتأخر مجازاتهم وعقوبتهم :

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَزَلْنَا الشَّيْطٰنِينَ عَلَى الْكٰفِرِينَ تَوَضُّعًا أَوْ أَتٰبًا﴾ ٨٣ ﴿٤﴾ ، ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ ٨٤ ﴿٥﴾ .
وفي الآية دلالة على ما كان يختلج في نفس النبي صلى الله عليه وسلم من استبطاء لأخذ هؤلاء المعاندين المحادين لله ودعوته وما كان يرجوه من تعجيل عقوبتهم .

و المعنى السابق يتبادر إلى الذهن عند تأمل قوله سبحانه : ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي : بوقوع العذاب بهم لتطهر الأرض منهم ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ ٨٤ ﴿٥﴾ أي : إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، وهذا قريب قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ ٥٠ وما دام الأمر كذلك فذرههم في طغيانهم يعمهون ، ولا تتعجل وقوع العذاب بهم . فإن الله - تعالى - قد حدد - بمقتضى حكمته - وقتاً معيناً لنزول العذاب بهم .

الداعي الثامن : الطعن في عرضه ورمي أهله بالفاحشة والوقية فيهم بالإفك :

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شُرَكَآءَ لَكُمْ بَلْ هُوَ خَبْرٌ لَّكُم لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِنثِرِ وَالَّذِي تُوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ١١ ﴿٦﴾ .

١ - سورة النساء ١٥٣ .

٢ - بحر العلوم للسمرقندي ١ / ٣٧٨ .

٣ - ينظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٧٠٦ ، تفسير البيضاوي ٢ / ٢٧٥ .

٤ - سورة مريم ٨٣ ، ٨٤ .

٥ - الأحقاف : ٣٥ .

٦ - سورة النور ١١ .

هذه الآية والآيات التي تلتها من سورة النور تتناول حادثة كان لها كبير الأثر في نفس الداعية الأول محمد صلى الله عليه وسلم وذلك يوم رميت زوجه الطاهر الحصان عائشة رضي الله عنها وأرضاها بما رميت به ، والآثار في هذه الحادثة ثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد وهي أشهر من أن نوردها في هذا المقام .

يقول سيد قطب : (هذا الحادث . حادث الإفك . قد كلف أظهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلاماً لا تطاق؛ وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل؛ وعلق قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلب زوجه عائشة التي يحبها ، وقلب أبي بكر الصديق وزوجه ، وقلب صفوان بن المعطل . . شهراً كاملاً . علقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يطاق) ١ .

والذي يستوقفنا هنا سريان هذه المقولة الكاذبة والإفك المبين في شأن عائشة رضي الله عنها وهي من هي في عفتها وطهرها وهي مع ذلك زوج أشرف الخلق وأكرمهم ، ويتكلم به قوم من أهل الإيمان والإسلام كما قال تعالى : ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ صحيح أن الذي تولى كبر هذا الإفك هو رأس الكفر والنفاق عبدالله بن أبي ولكن وجد من بين المسلمين من سرت إليه العدوى وتكلم بالبهت والكذب كما جاءت بذلك الآثار بل كما هو مرقوم في الكتاب العزيز ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ١٤ إِذ تَلَفْتُمْ بِالْمَقْتَلِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ١٥ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ ١٦ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٧ وَيَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ١٨ ٢ .

الداعي التاسع : ما يلقاه من بعض أزواجه من إعنات ومشقة بسبب التغيرات الحاصل بين الضرائر كما قال تعالى عن اثنتين من أزواجه : ﴿إِنْ نُبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ ٤ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ مُسَلِّمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَيْنَاتٍ تَذَبْتِ عَنِّي لَلَّاتٍ سَخِيخَاتٍ تَبَيَّنَتْ وَأُنكَارًا﴾ ٥ ٣

الداعي العاشر : ما يصيبه من أذى أقرب الناس إليه عمه حينما يسبه ويجاهره العداً ويدعو عليه بالهلاك أمام الناس كما قال تعالى مخبراً عن ذلك : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ

١ - في ظلال القرآن لسيد قطب ٥ / ٢٥٧ .

٢ - سورة النور ١٤ - ١٨ .

٣ - سورة التحريم ٤ ، ٥ .

١ . هذه جملة من دواعي تسلية الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ولعل المتأمل لكتاب الله الكريم يقف على أمثالها وما يقاربها ولأننا لم نشترط حصر كل الدواعي التي جاء بها الكتاب العزيز فإننا نكتفي بهذا القدر منها وننتقل إلى المبحث الثالث لتناول وجوه وصور تسلية الله - سبحانه وتعالى - للحبيب محمد صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثالث

وجوه تسلية الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم

إذا كان المبحث السابق قد جاء بذكر جملة من الدواعي التي اقتضت أن يسلي الرب الرؤوف الرحيم رسوله وحبيبه الكريم فإن هذا المبحث يتناول جملة من الوجوه والصور والمعاني التي جاءت بتسلية الله لنبيه صلى الله عليه وسلم عن ما يلقاه من وعاء الطريق ومشقة حمل أمانة الدعوة إلى الله وسبيله والمعوقات التي ربما أجزته وأثرت في نفسه ، وربما ظن أن لها تأثيراً في تأخر استجابة النفوس لداعي الحق وتأخير لنصرة كلمة التوحيد ، سواء أكانت هذه المؤثرات والمعوقات والمضارة آتية من خصوم الدعوة الظاهرين كالمشركين واليهود أو كانت ممن يبطن العداء لها ويتسربل بلباس الإسلام خيفة ومخادعة كالمنافقين ، وإن المتأمل ليلحظ حنو الله على حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم وإشفاقه عليه حتى مما قد يلقاه من إعنات ومشقة من أقرب الناس له كما هو الحال في الآيات التي جاءت مسلية له عن ما يقع من أزواجه الضرائر المتغايرات اللاتي تدفعهن غيرتهن ومضارتهن لبعضهن البعض أن يقدمن على تصرفات لربما أقلقت أو أزعجت جنابه صلى الله عليه وسلم .

تسلية الله سبحانه لنبيه - صلى الله عليه وسلم - هي تسلية الحبيب لحبيبه وبذا يمكن القول بأن تسليته سبحانه لمحمد صلى الله عليه وسلم هي أثر من آثار محبة الله ولطفه به وإن المتأمل في الآيات التي جاءت في سياق التسلية التي نحن بصدها ليتعلم كيف يكون الحب وكيف يصنع المحبون حينما ينشدون الأنس لمن يحبون .. فالحديث عن التسلية بهذا الاعتبار حديث عن الحب بل عن الحب في أرقى درجاته ومراتبه.

وإنني لأستشف من تأملي في مواضع التسلية المراد الوقوف عندها وكثرتها في كتاب الله .. إنني لأستشف عين الله وهي ترقب حركة محمد صلى الله عليه وسلم مبشراً برسالة الحب والسلام التي أمره ربه اللطيف بإبلاغها .. ترقبه عين الله وهو يسعى بكلمة الله مبشراً للخلق أجمعين ويتحرك ما أمكن له أن يتحرك فحينما يقبل منه قوله وهذا في القليل النادر في الأيام الأولى للرسالة وغالباً ما يرد عليه قوله على درجات من قبج الرد وعنفه ومرارته .. فنجد أنه ما إذا ما صدم صلى الله عليه وسلم بقسوة الصد من المدعويين ومرارة الجواب من المخاطبين بل وشدة الإيذاء ممن ينشد لهم الهداية كلما حدث له شيء من هذا تنزلت كلمات الله على

فؤاده برداً وسلاماً وتسليّة وتخفيفاً .. حتى ليتأكد لقارئ كتاب الله أن من مقاصد تنزيل كتاب الله منجماً خلا نيف وعشرين سنة التسليّة والتخفيف عن الداعية الأول صلى الله عليه وسلم.

ففي هذا المبحث وقوف على صور ووجوه من وجوه تسليّة الله لنبيه وهي بمضمونها ومآلها تسليّة لكل من سلك طريقه وحمل رايته وكان من أتباعه في دعوته وسبيله جعلنا الله من أهل قربه وأتباع حبيبه:

الوجه الأول: تذكيره عليه الصلاة والسلام بأن ما يقع له من استهزاء وسخرية قد وقع لإخوانه من الأنبياء عليهم السلام والرسل قبله:

ومن الآيات التي جاءت بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِك فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٠) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١١) ﴿١﴾ ، يقول ابن جزى: (الآية إخبار قصد به تسليّة النبي صلى الله عليه وسلم عما كان يلقي من قومه) ٢ ، ويقول الثعالبي ٣: (وقوله سبحانه ولقد استهزئ برسلك من قبلك الآية تسليّة للنبي صلى الله عليه وسلم بالأسوة في الرسل وتقوية لنفسه على محاجة المشركين وإخبار يتضمن وعيد مكذبيه والمستهزئين به) ٤.

إذا كان الاستهزاء عادة أهل السفه والكفر في تعاملهم مع أنبياء الله فهو عليك يا محمد وانتظر مع ذلك ما سوف يحيق بهؤلاء من العذاب عقاباً ونكالاً كما حاق بمن قبلهم ممن سخر بأنبياء الله ورسله ، فهي سنة الله الجارية بالانتقام من أعداء أنبيائه والداعين إلى سبيله ولمن يريد أن يتيقن من وعد الله لأوليائه ووعيده لأعدائه فليتنظر في مصارع المستهزئين وعاقبة سخريتهم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ

١ - سورة الأنعام ١٠ ، ١١ .

٢ - التسهيل لابن جزى ١ / ٣٤٨ ، وينظر: لباب التاويل في معاني التنزيل لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن ، طبعة دار الفكر - بيروت / لبنان - ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ٤ / ٢٤ .

٣ - الثعالبي: الإمام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المغربي المالكي ، طلب العلم ورحل في هذا الشأن إلى تونس و مصر وغيرها واشتهر في وقته ، و خلف مؤلفات كثيرة منها : تفسيره المشهور الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، و كتاب الإبريز في غرائب الكتاب العزيز و تحفة الإخوان في إعراب بعض آيات القرآن ، و ولد سنة ٧٨٥ هـ و توفي سنة ٨٧٦ هـ عن نحو تسعين سنة و دفن بمدينة الجزائر (انظر : معجم المؤلفين لكحالة ٥ / ١٠٥ ، و التفسير و المفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي ، ط ٦ مكتبة وهبة - القاهرة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م ١ / ٢٥٨)

٤ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ، طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت ، وينظر : مفاتيح الغيب فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي الطبعة الأولى دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م ١٩ / ٤٤ .

كَانَ عَقِبَهُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾ ، يقول ابن كثير : (هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في تكذيب من كذبه من قومه، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة، في الدنيا والآخرة)٢ .

ويرى الباحث في تحول السياق من مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم إلى مخاطبة بضمير الجمع ﴿قُلْ سِرُّوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا﴾ ما يفيد ويقرر مجيء القرآن مسلياً للداعية الأول عليه الصلاة والسلام ابتداء وكذا لكل من سار على دربه وحمل راية دعوته تبعاً ، كما نستشف منها سريان الوعيد والتهديد لأهل السخرية والاستهزاء بالدعاة في كل زمان ومكان.

تتشابه بل تتفق العوقات والصعاب التي تعترض طريق الدعوة والدعاة في كل زمان ومكان ولأن الأمر كذلك يصح من البدهي أن تتحد الطرق والمسالك للتعامل والتعاطي مع هذه العوقات والمصاعب .

يقول سيد قطب : (إن هذه اللفتة - بعد ذكر إعراضهم عناداً وتعنتاً؛ وبعد بيان ما في اقتراحاتهم من عنت وجهالة؛ وما في عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة من الله وحلم - لترمي إلى غرضين ظاهرين :

الأول : تسلية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتسرية عنه ، مما يلقاه من عناد المعارضين ، وعنك المكذبين؛ وتطمين قلبه - صلى الله عليه وسلم - إلى سنة الله سبحانه في أخذ المكذبين المستهزئين بالرسول؛ وتأسيسه كذلك بأن هذا الإعراض والتكذيب ليس بدعاً في تاريخ الدعوة إلى الحق . فقد لقي مثله الرسل قبله؛ وقد لقي المستهزئون جزاءهم الحق وحقاق بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب ، ومن غلبة الحق على الباطل في نهاية المطاف . .

والثاني : لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين : وتذكيرهم بهذه المصارع التي تنتظرهم إن هم لجوا في الاستهزاء والسخرية والتكذيب . وقد أخذ الله - من قبلهم - قروناً كانت أشد منهم قوة وتمكيناً في الأرض؛ وأكثر منهم ثراء ورخاء ، كما قال لهم في مطلع هذه الموجة؛ التي ترج القلوب رجاً بهذه اللفات الواقعية المخيفة)٣ .

وفي التعبير باسم الموصول في قوله : ﴿ فَحَاقَ بِالزَّبْرِ سَخْرُوا ﴾ والعدول عن (الساخرين) إشارة إلى أن ما أصابهم من عذاب لم يكن تجنياً عليهم ، وإنما كان بسبب سخريتهم برسول الله والاستخفاف بهم؛ لأن التعبير بالموصول يفيد أن الصلة هي علة الحكم .

١ - سورة الأنعام ١١ .

٢ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢ / ١٥٤ .

٣ - في ظلال القرآن لسيد قطب ٢ / ١٠٧٧ ، وينظر : التحرير والتنوير للعلامة محمد الطاهر بن عاشور ٧ / ١٤٧ .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ مجاز علاقته السببية ، لأن الذي حاق بهم هو العذاب المسبب عن الاستهزاء ، ففيه إطلاق السبب وإرادة المسبب ، وذلك يفيد أن العذاب ملازم لهذه السخرية لا ينضك عنها ، فحيثما وجد التطاول على أولياء الله والدعاة إلى دينه ، وجد معه عذاب الله وسخطه على المتطاولين والمستهزئين .

ويقول الله في موضع آخر : ﴿ وَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ ﴿٣٢﴾ ، وهذه الآية كسابقتها إلا أنها أفادت معنى مستجداً مفاده أن تطاول أهل الكفر والجحود واستمراءهم للسخرية والاستهزاء ربما طالت فترته وإنما ذلك من إمهال الله لهم ، الإمهال الذي يعقبه الأخذ بالعقوبة على حين غرة كما قال : ﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ ﴿٣٢﴾ . والمعنى : لا تحزن يا محمد لما أصابك من قومك ، فإن من شأن الدعاة إلى الحق المجاهدين في سبيله أن ينالهم الأذى من أعدائهم ، ولقد أؤذي من سبقك من الرسل الكرام ، وسخر الساخرون منهم ، فصبروا على ذلك ، وجاءهم في النهاية نصرنا الذي وعدناهم به ٢ .

إذن فوجه تسلية الله لنبيه تجاه موجات الاستهزاء والسخرية يتلخص بأن الأنبياء والرسل قبله قد تعرضوا لمثل ما تعرض له (فلست أول رسول كذب وأؤذي) ٣ إضافة إلى أن الله إنما يملئ لأعداء الرسل والأنبياء رغم استهزائهم بأوليائه ليأخذهم أخذ عزيز مقتدر جزاء وعقوبة لهم على صنيعهم (فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤوا بك بإمهالنا، فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك) ٤ .

الوجه الثاني : تذكيره عليه الصلاة والسلام بأن ما يلاقى به من التكذيب له ولرسالته قد سبق مثاله للأنبياء والرسل قبله ٥ :

١ - سورة الرعد ٣٢ .

٢ - ينظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢ / ٦٢٨ .

٣ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن السعدي تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحي الناشر : مؤسسة الرسالة الطبعة : الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م (٤١٨) .

٤ - المرجع السابق (٤١٨) .

٥ - يمكن القول بأن الحكمة الأولى من قص قصص الأنبياء والرسل في كتاب الله هي تسلية النبي صلى الله عليه وسلم والدعاة الحاملين رسالته من بعده ، يقول العلامة أبو حيان الأندلسي في تفسيره : (لما ذكر تعالى الدلائل على وحدانيته ، وذكر ما جرى بين الرسول وبين الكفار ، ذكر قصصاً من قصص الأنبياء وما جرى مع قومهم من الخلاف وذلك تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ، وليتأسى بمن قبله من الأنبياء فيخف عليه ما يلحق منهم من التكذيب وقلة الاتباع ، وليعلم المتلو عليهم هذا القصص عاقبة من كذب الأنبياء ، وما منح الله نبيه من العلم بهذا القصص وهو لم يطالع كتاباً ولا صحب عالماً ، وأنها طبق ما أخبر به .) (تفسير البحر المحيط للعلامة أبو حيان الأندلسي ط دار الفكر ٥ / ١٤٥) .

ومن الآيات التي جاءت بهذا الوجه من وجوه التسلية قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴾ ٤٢ : ١ : فإن فيها من التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم المتضمنة للوعد الكريم بإهلاك من يعاديه من الكفرة الشيء البين الجلي ٢ ، (فهو ليس بأوحدى في التكذيب فإن هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومه) ٣ ، ويقول الطبري عند تفسير ذات الآية : (يقول تعالى ذكره مسلماً نبياً محمداً صلى الله عليه وسلم عما يناله من أذى المشركين بالله، وحاضاً له على الصبر على ما يلحقه منهم من السب والتكذيب: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون بالله على ما آتيتهم به من الحق والبرهان، وما تعدهم من العذاب على كفرهم بالله، فذلك سنة إخوانهم من الأمم الخالية المكذبة رسل الله المشركة بالله ومنهاجهم من قبلهم، فلا يصدنك ذلك، فإن العذاب المهين من ورائهم ونصري إياك وأتباعك عليهم آتيتهم من وراء ذلك، كما أتى عذابي على أسلافهم من الأمم الذين من قبلهم بعد الإمهال إلى بلوغ الآجال) ٤ .

يقول الحافظ ابن كثير : (هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أمهم به من الدلائل الواضحات. ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم) ٥ .

وإن رميه صلى الله عليه وسلم بالكذب لسماجة من القول ، وإذا كان أهل الجهالة قد استجازوا لأنفسهم وسوغوا لها تكذيب من عرفوه وعرفوا صدقه وأمانته حتى صار هذان الوصفان لقباً لا يعرف إلا به إذا كان الأمر كذلك في حقه فإن على الدعاة من بعده أن يكيّفوا أنفسهم ويهيئوها مثل ذلك القول وذلكم التكذيب.

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ ٥ ، وقال سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودٌ ﴾ ١٢ ، وقال أيضاً : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴾ ١٦ ، وبالتأمل في هذه

١ - سورة الحج ٤٢ .

٢ - ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ٦ / ١١٠ .

٣ - الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت وينظر: تفسير البيضاوي ٤ / ١٣٠ .

٤ - جامع البيان في تأويل القرآن لأبي جعفر الطبري ١٨ / ٦٥٢ .

٥ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ٥٢٨ ، ٣ / ٢٧٨ .

٦ - سورة غافر ٥ .

٧ - سورة ق ١٢ .

٨ - سورة القمر ٩ .

الآيات التي جاءت بهذا الصدد نلمح فيها تذكيراً للمكذابين لمحمد صلى الله عليه وسلم بحالهم ووبالهم كما أنها تتضمن إنذاراً بإهلاكهم واستئصالهم ، بالإضافة إلى ما فيها من تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتنبية بأن حاله كحال من تقدمه من الرسل كذبوا وصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونصرهم .

الوجه الثالث : تذكيره بأنه لا يُسمع مَنْ كتب الله عليه الضلال :

كان رسول صلى الله عليه وسلم يرفع صوته مبلغاً لآيات ربه منادياً إلى إني توحيداً داعياً إلى سبيله وكان لا يألو جهداً في أن يصل صدى صوته كل أذن ولكنه لا يرى لدعوته وصوته إنصتاً وقبولاً فيأسى لذلك، فأنزل الله مخاطباً إياه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْرِينًا ۗ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ ۗ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۗ ۱ .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ۗ ﴾ ، أي: لا تسمع من أضله الله إسماع هدى وقبول، ﴿ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ۗ ﴾ ، يعني: ما تسمع إسماع هدى وقبول، إلا من هديناهم للإيمان بآياتنا ﴿ فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۗ ﴾ فهون عليك واعلم أن الهداية بأمر الله وإرادته .

الوجه الرابع : تذكيره بأنه لن يهدي من أضله الله :

والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدُنُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ۗ ۲ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ ۗ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ۗ ۳ ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۗ ۴ وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدُنُهُمْ وَلَا كُنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۗ ۵ .

١ - سورة النمل ٨٠ ، ٨١ .

٢ - سورة النحل ٣٧ .

٣ - سورة المائدة ٤١ .

٤ - سورة القصص ٥٦ .

٥ - سورة البقرة ٢٧٢ .

يقول أبو حيان ١: (وفي ذلك تسليّة للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو نظير: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْعُ﴾ ٢ فالعنى : ليس عليك هدى من خالفك) ٣.

الوجه الخامس: تذكيره بأنه ليس من شأنه إكراه أحد على الهداية:

وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ٤ يقول الطبري: (يقول جل ثناؤه لنبىّه محمد صلى الله عليه وسلم: إنه لن يصدقك يا محمد، ولن يتبعك ويقرّ بما جئت به إلا من شاء ربك أن يصدقك، لا يكرهك إياه، ولا بحرصك على ذلك) ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ٥ لك، مصدقين على ما جنتهم به من عند ربك) ٥ ويقول أبو حيان: (تسليّة للرسول صلى الله عليه وسلم، وأن لا يكثرث بعدم قبولهم، فإن الهداية إنما هي لله) ٦.

الوجه السادس: تذكيره بأنه ما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله سبحانه:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَجَعَلَ الرِّحْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ٧، يقول الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبىّه: وما كان لنفس خلقتها من سبيل إلى تصديقك، يا محمد، إلا إلا بأن أذن لها في ذلك، فلا تجهدن نفسك في طلب هداها، وبلغها وعيداً الله، وعرفها ما أمرك ربك بتعريفها، ثم خلها، فإن هداها بيد خالقها) ٨.

الوجه السابع: إعلامه عليه الصلاة والسلام بأنه ليس إلا مجرد مذكر للناس وأن مأل الخلق إلى الله:

ومما جاء في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۖ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۗ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۗ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ ٩ (أمر الله رسوله صلى الله عليه

١ - أبو حيان: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الإمام أثير الدين، أبو حيان الأندلسي الغرناطي، نحوي عصره ولغوي ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه. ولد في آخر شوال سنة ٦٥٤هـ تقدم في النحو وأكب على طلب الحديث وأتقنه وبرع فيه، وفي التفسير، والعربية، والقراءات، وله من التصانيف: البحر المحيط في التفسير، النهر مختصره، إحاف الأريب. بما في القرآن من الغريب وتوفي سنة ٧٤٥هـ (ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي، طبعة مكتبة مشكاة الإسلامية ١ / ٢١٢).

٢ - سورة الشورى ٤٨.

٣ - البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، طبعة دار الفكر ٢ / ٣١٥.

٤ - سورة يونس ٩٩.

٥ - جامع البيان للطبري ١٥ / ٢١٣.

٦ - البحر المحيط للعلامة لأبي حيان ٥ / ١٢٩.

٧ - سورة يونس ١٠٠.

٨ - جامع البيان للطبري ١٥ / ٢١٣٤.

٩ - سورة الغاشية ٢١ - ٢٦.

عليه وسلم بالدوام على تذكيرهم وأنه لا يؤيسه إصرارهم على الإعراض وعدم ادكارهم بما ألقى إليهم من المواعظ ، وتثبيته بأنه لا تبعة عليه من عدم إصغائهم إذ لم يُبعث مُلجناً لهم على الإيمان^١ إذن فهذه الآيات ناطقة بالتسلية لنبى الله صلى الله عليه وسلم ومتوقعة من يكفر ويصد بيوم الرجوع إلى الله ومحاسبته إياهم ، وهذا الرجوع يوم الحساب وإن كان عاماً في جميع الخلق إلا أنه في حق المعاندين الجاحدين رجوع ليلاقوا جزاءهم وفاق كفرهم وعنادهم.

الوجه الثامن : ذكر أخبار نقض اليهود لعهود أنبيائهم وغدرهم بهم لتسليته عما يلقاه من غدرهم وخيانتهم:

يقول الله : ﴿ فَمَا نَقَّضْتَهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفَّرْتَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بَعِيرٍ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥﴾ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتِنًا عَظِيمًا ۝١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۝٢﴾ (كل ما ذكر في هذه الآيات هو تسلية للنبى صلى الله عليه عليه وسلم وتخفيفاً على نفسه، مما يلاقي من تعنت اليهود، وصلفهم، وقساوة قلوبهم ومعاملاتهم)^٣.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝١٦٨﴾ ٤.

ومن الآيات التي جاءت بتقرير هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ۝٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾ (وقد تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان ، ما يدل على غباء بني إسرائيل وقصر نظرهم . لأنهم اتخذوا العجل لها بعد أن شاهدوا البراهين على صدق نبىهم ، كما تضمنتا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يشاهده من اليهود المعاصرين للدعوة الإسلامية ، فكانه سبحانه يقول : إن ما قام به بنو إسرائيل المعاصرون لك من أذى وحقد قد فعل ما يشبهه

١ - التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الطبعة : الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان ٣٠ / ٢٧٢.

٢ - سورة النساء ١٥٥ - ١٥٧.

٣ - أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لأبي بكر الجزائري جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر ، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية (١ / ٥٦٩).

٤ - سورة المائدة ٦٨.

٥ - سورة البقرة ٥١ - ٥٢.

آباؤهم الأقدمون مع نبيهم موسى - عليه السلام - فلقد اتخذوا في غيبته عجباً جسداً له خوار دون أن يفظنوا إلى أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سييلاً ، اتخذوه وكانوا ظالمين (١).

الوجه التاسع: تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وكل داع إلى الله تعالى بإعلامه أنه ما من نبي ولا داع إلا وله أعداء من الجن والإنس يحاربونه حتى ينصره الله عليهم.

يقول الله تعالى: قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ ٢ ، يقول أبو حيان: (المعنى مثل ما جعل هؤلاء الكفار المقترحين الآيات وغيرهم أعداء لك جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء شياطين الإنس والجن أي متمردى الصنفين) ٣ ، (وكما خلدنا بينك وبين أعدائك ، وكذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم ، لم نمنعهم من العدو ، لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر ، وكثر الثواب والأجر) ٤.

قال أبو جعفر الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، مسلماً بذلك عما لقي من كفره قومه في ذات الله، وحاتماً له على الصبر على ما نال فيه: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ﴾ ، يقول: وكما ابتليناك، يا محمد، بأن جعلنا لك من مشركي قومك أعداء شياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول، ليصدوهم بمجادلتهم إياك بذلك عن اتباعك والإيمان بك وبما جئتهم به من عند ربك، كذلك ابتلينا من قبلك من الأنبياء والرسل، بأن جعلنا لهم أعداء من قومهم يؤذونهم بالجدال والخصومات) ٥.

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ ٦ ، وختم الآية بقوله سبحانه: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ ٧ ، تسليية وتخفيف عنه عليه الصلاة والسلام والسلام حتى لا يظن بأنه متروك وحده في وجه أعدائه من شياطين الفريقين فالله كافيته وهاديه وناصره ، فالتسليية في هذه الآية من وجهين أحدهما هذا الوعد الكريم بالكفاية والنصر والهداية والثاني ما تضمنته من كون تلکم العداوة سنة جارية في أنبيائه ورسله السابقين.

١ - التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي ١ / ٨٦ .

٢ - سورة الأنعام ١١٢ .

٣ - البحر المحيط لأبي حيان ٤ / ١٦٥ .

٤ - الكشاف للزمخشري ٢ / ٥٦ .

٥ - جامع البيان للطبري ١٢ / ٥١ ، وينظر: التسهيل لابن جزي ١ / ٣٧٥ ، ومعالم التنزيل للبغوي ٣ / ١٧٩ ، لباب التأويل في معاني التنزيل للحازن ٢ / ١٧٣ ، مفاتيح الغب للرازي ١٣ / ١٢٩ ، السراج المنير لشمس الدين محمد بن أحمد الشربيني ، طبعة دار الكتب العلمية . بيروت ٣ / ١٤ .

٦ - سورة الفرقان ٣١ .

٧ - سورة الفرقان ٣١ .

الوجه العاشر : تسليته عما يلقيه من إعراض أكثر الناس عن الحق ورغبتهم عن الهدى :

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا جَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ جَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتَقِينَ ﴾ ١ وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ ٢ .

ومثل ذلك ما أخبره به في قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ٣ فَأَجْمِنَهُ وَأَصْحَبَ السِّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ٤ . ٣ فضيه بيان قلة من استجاب لنوح مع المدة الطويلة فيكون هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم والدعاة من بعد .

يقول الحافظ ابن كثير: (هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق وإعراضاً عنه وتكديباً له، وما آمن معه منهم إلا قليل، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ٤ ؛ أي بعد هذه المدة الطويلة ما نجح فيهم البلاغ والإنذار، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم، فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وبيده الأمر، وإليه ترجع الأمور)٥ .

ويقول تعالى مخبراً عن إبراهيم : ﴿ فَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ٦ ووهبنا له إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَيَّدْنَاهُ بِجُرْهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ٧ وفيه بيان حصيلة دعوة إبراهيم عليه السلام كذا سنة وأنها كانت إيمان واحد بها وهو لوط عليه السلام وفي هذا تسلية للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

وقال - سبحانه - في شأن موسى : ﴿ فَمَا أَمَّنْ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ ٧ وقد جاء هذا التعقيب بعد أن جاء السياق بذكر الآيات العظام التي أيد الله بها نبيه موسى عليه السلام ومع ذلك لم يؤمن له إلا ذرية من قومه وإنما ذكر الله هذا تسلية لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان

١ - سورة الأعراف ١٠٢ .

٢ - سورة يوسف ١٠٦ .

٣ - سورة العنكبوت ١٤ ، ١٥ .

٤ - سورة العنكبوت ١٤ .

٥ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ٤٩٣ .

٦ - سورة العنكبوت ٢٦ ، ٢٧ .

٧ - سورة يونس ٨٣ .

قومه ، وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به ، واستمرارهم على الكفر والتكذيب ، فبين الله له أن له أسوة بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - . لأن ما جاء به موسى من المعجزات ، كان أمرا عظيما . ومع ذلك فما آمن له إلا ذرية من قومه .

الوجه الحادي عشر : تسليته بالتذكير بأن التقليد الأعمى وتمسك المشركين بملة الكفر بحجة أنها ملة آبائهم، أن ذلك معهود لدى المعاندين للرسول والرسالات وديدهم في كل العصور:

ومن الآيات التي جاءت في هذا الشأن : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ١ ، فهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وبيان أن تقليد الآباء داء قديم يتوارثه أهل الضلال الصادون عن سبيله فكما فعل هؤلاء المشركون من دفاع الحجة بالتقليد ، فعل من قبلهم من أهل الكفر بالله ٢ ، ويستمر السياق بعد ذلك في تسلية نبي الله تعالى حيث يقول : ﴿ قُلْ أَوْلُوا حِجَّتِكُمْ بَاهَدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ٣ إذن فهو الانتقام من هؤلاء المعاندين الصادين عن سبيل الحق العمي عن رؤيته المحجوبين بحجب التقليد الساذج الأبله.

قال تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيْبَهُمْ عَيْرَ مَنُوصٍ ﴿١١٩﴾ ﴾ ٣ يقول أبو حيان: (لما ذكر تعالى قصص عبدة الأوثان من الأمم السالفة ، وأتبع ذلك بذكر أحوال الأشقياء والسعداء ، شرح للرسول صلى الله عليه وسلم أحوال الكفار من قومهم ، وإنهم متبعو آبائهم كحال من تقدم من الأمم في اتباع آبائهم في الضلال. وهؤلاء إشارة إلى مشركي العرب باتفاق ، وأن ديدنهم كديدن الأمم الماضية في التقليد والعمى عن النظر في الدلائل والحجج. وهذه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ، وعدة بالانتقام منهم ، إذ حالهم في ذلك حال الأمم السالفة ، والأمم السالفة قد قصصنا عليك ما جرى لهم من سوء العاقبة)٤.

الوجه الثاني عشر : تسليته عما يصيبه وأصحابه من هزيمة في معركة أو غزو :

١ - سورة الزخرف ٢٣ .

٢ - ينظر : محاسن التاويل للناصري ١٤ / ٣٣٤ ، والبحر المديد حيث قال ابن عجيبة في هذا الموضوع : (فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وبيان أن التقليد فيهم ضلال قديم) ٧ / ١٤ .

٣ - سورة هود ١٠٩ .

٤ - البحر المحيط لأبي حيان ٥ / ٢٢٠ .

قال تعالى : ﴿ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَوْجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَوْجٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَيَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ ١ فصي هذا تسليية عمآ أصاب المسلمين يوم أحد من الهزيمة بأن ذلك غير عجيب في الحرب ، إذ لا يخلو جيش من أن يغلب في بعض مواقع الحرب ، وقد سبق أن العدو غلب ٢ كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ ٣ وأنهم إذا أصيبوا بشيء من الضرر والأذى فمثل هذا يقع لعدوهم ولكن شتان بين ما يرجوه كل من الفريقين وينتظر كلا من الحزبين وهذا مما يدفع عن أنصار دين الله والدعاة إليه الوهن والضعف كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمِنُونَ كَمَا تَأْمِنُونَ وَرَجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ ٤ .

وهو يدعوهم هنا للأسوة ، والأسوة مسلاة للمصاب ومنه قول الخنساء ٥ :

على إخوانهم لقتلت نفسي

ولولا كثرة الباكين حولي

أعزي النفس عنه بالتأسي ٦

وما يبكون مثل أخي ولكن

ومن حكمة الله تعالى كذلك أن (امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يمحصهم ويخلصهم ويهدبهم)٧.

ولم نذهب بعيداً عن الآية التي بدأنا بها فقد سبقتها آية ناطقة بالتسليية والتطمين لجند الحق وإعزاز مكانهم رغم ما أصابهم حيث يقول الله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ ٨ ، يقول صاحب الظلال : (لا تهنوا - من الوهن والضعف - ولا تحزنوا - لما أصابكم ولما فاتكم - وأنتم

١ - سورة آل عمران ١٤٠ ، ١٤١ .

٢ - ينظر : التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ، التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٠ / ٣٠٦ .

٣ - سورة آل عمران ١٢٣ .

٤ - سورة النساء ١٠٤ .

٥ - الخنساء : تناصر بنت عمرو بن الحارث السلمية ، ولقبها الخنساء ؛ قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يستنشدتها شعرها وتعجبه ويقول : هي يا خناس ، ويومئ بيده . أكثرت من رثاء أخويها اللذين قتلوا في الإسلام والبيتان من إحدى قصائدها في رثائهما . (سير أعلام النبلاء للذهبي ٣ / ٤٦٢) .

٦ - البيتان من الوافر للخنساء ، ينظر ديوان الخنساء ٦٧ .

٧ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله الطبعة الثانية ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م ، دار المعرفة - بيروت تحقيق : محمد حامد الفقي ٢ / ١٩٠ .

٨ - سورة آل عمران ١٣٩ .

الأعلون . . عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون لله وحده وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه! ومنهجكم أعلى . فأنتم تسرون على منهج من صنع الله وهم يسرون على منهج من صنع خلق الله! ودوركم أعلى . فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها الهداة لهذه البشرية كلها وهم شاردون عن النهج ضالون عن الطريق . ومكانكم في الأرض أعلى فلکم وراثه الأرض التي وعدكم الله بها وهم إلى الفناء والنسيان صائرون . فإن كنتم مؤمنين حقاً فأنتم الأعلون . وإن كنتم مؤمنين حقاً فلا تهنوا ولا تحزنوا . فإنما هي سنة الله أن تصابوا وتصيبوا على أن تكون لكم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص)١ .

إذن فقد جاءت تلكم الآيات بتشجيعهم وتقوية نفوسهم وإحياء عزائمهم وهمهم كما جاءت بحسن التسلية وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت حصول ما حصل من ظهور الباطل في إحدى جولات العراك والصرع والتي كتب الله في خاتمتها العزة والرفعة والعلو لمن آمن به واستمسك بحله .
ولكان القرآن بهذه اللمسات الحانية والعبارات اللطيفة الندية يضع البلسم على الجراح ويتلمس مواضع التصدع من النفوس المؤمنة فيرممها ويقوي ما وهى منها .

الوجه الثالث عشر : تسليته عن تعنت المشركين والكفرة وجرأتهم في طلب معجزات يقترحونها من لدنهم :
قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَىٰ سُلْطَنَا مُبِينًا ۚ ﴾ في هذا الكلام تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ودلالة على جراتهم ، وإظهار أن الرسل لا تجيء بإجابة مقترحات الأمم في طلب المعجزات بل تأتي المعجزات بإرادة الله تعالى عند تحدي الأنبياء ، ولو أجاب الله المقترحين إلى ما يقترحون من المعجزات لجعل رسله بمنزلة المشعوذين ، إذ يتلقون مقترحات الناس في المحافل والمجامع العامة والخاصة ، وهذا مما يحط من مقدار الرسالة ٢ .

ويخبره تعالى في موضع آخر بأنه مهما جاءهم به من المعجزات والآيات فإنهم لن يتبعوه قال تعالى : ﴿ وَلَئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَعْبُوا قِبَلَتَكَ ﴾ ٣ قال ابن كثير : (هذه تسلية للرسول عن متابعة أهل الكتاب له . أعلمه أولاً أنهم يعلمون أنه الحق ، وهم يكتفون به ، ولا يرتبون على العلم به مقتضاه . ثم سلاه عن قبولهم الحق ، بأنهم قد انتهوا في العناد وإظهار المعادة إلى رتبة ، لو جئتهم فيها بجميع المعجزات التي كل معجزة منها تقتضي قبول الحق ، ما تبعوك ولا سلوكوا طريقك . وإذا كانوا لا يتبعونك ، مع مجيئك لهم

١ - في ظلال القرآن لسيد قطب ١ / ٤٥٢ .

٢ - التحرير والتنوير ٦ / ١٤ .

٣ - سورة البقرة ١٤٥ .

بجميع المعجزات ، فأحرى أن لا يتبعوك إذا جئتهم بمعجزة واحدة) ١ وذلك أن فريقا من أهل العناد والكفر لا يزالون ولن يزالوا مستمسكين بالباطل ومتعصبين ، وتقرير هذه الحقيقة وتأكيدا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان على أشد ما يكون حرصا على هداية الناس ؛ فأخبره ربه بأنه لن يؤمن إلا من وفقه الله للإيمان وسبقت له السعادة وكتب له النجاح والفوز وأن من كتب عليه الضلال والشقوة فلن يؤمن ولو أتيتهم بكل آية.

الوجه الرابع عشر : تسليته بأن الله يمهل للمشركين فلا يستعجلن عقوبتهم وعذابهم:

كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ فقد تضمنت تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن إمهالهم وعدم تعجيل عقابهم ٣ ، ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ أي لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ أي إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله وعقابه ، ويقول الطبري : (فلا تعجل على هؤلاء الكافرين بطلب العذاب لهم والهلاك، يا محمد ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ ، يقول: فإنما نؤخر إهلاكهم ليزدادوا إثما، ونحن نعد أعمالهم كلها ونحصيها حتى أنفاسهم لنجازيهم على جميعها، ولم نترك تعجيل هلاكهم لخير أردناه بهم) ٤ .

وفي الآية تقليل لأيام المهلة التي يمهلهم الله إياها حتى إنها لتعد عدداً، وإن كان قد فسر قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ بأكثر من معنى فمما قيل فيها أن الذي يعد هو الأيام وقيل الليالي والشهور والسنين من أعمالهم ، وقيل خطواتهم وقيل لحظاتهم وقيل الساعات وقيل الأنفاس تعد نفساً نفساً ، وقيل الأعمال ، وقيل الذنوب والمعاصي تعد عدداً .

والذي يظهر ألا تناه في بين هذه الأقوال والمعاني جميعها في تفسير الآية وإن كان الذي يجمع بينها كلها عظم الرهبة والهول الذي تلقيه في النفس من هذا العد الدقيق من قبل من لا تخفى عليه خافية .

الوجه الخامس عشر : كما نلمح التسلية في تذييل كثير من الآيات بذكر أسماء الله الحسنی وصفاته العلى :

١ - البحر المحيط لأبي حيان ١ / ٣٧٤ .

٢ - سورة مريم ٨٣ ، ٨٤ .

٣ - التحرير والتنوير لابن عاشور ١٦ / ١٦٥ .

٤ - جامع البيان للطبري ١٨ / ٢٥٢ .

ومثال على هذا النوع من التسلية قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْمَعْ بِعَضُنَا بِعَضٍ وَبَلِّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثُونَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ١ ، وتذييل الآية بقوله سبحانه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ تسلية لبيان ما تقتضيه حكمته وإرادته . أي : إن ربك حكيم في التعذيب والإثابة وفي كل أفعاله . عليم بأحوال الضريقين من الجن والإنس وأعمالهم وبما يترتب على ذلك من عقوبة ومثوبة وجزاء عادل في الدنيا والآخرة .

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١١﴾ ﴾ ٢ عقب ذكر قصة نبيه صالح وغيره من الأنبياء وما لقوه من أذى قومهم وإعراضهم وفيه تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين عما أصابهم من أذى . والمعنى إن ربك يا محمد هو القوي الذي لا يتعاطم عليه شيء ، العزيز الذي لا يهون من يتولاه ويرعاه ، فلا تبتئس عما أصابك من قومك ، فربك قادر على أن يفعل بهم ، ما فعله بالسابقين من أمثالهم من الظلمة المعتدين .

الوجه السادس عشر : تسليته عن أذيته بالطعن في عرضه والوقعية في زوجه بالإفك وتذكيره بأن في ذلك خيراً له ولأهله وفي هذا نزلت الآيات من سورة النور : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شُرَّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ ٣ .

ووجه التسلية في هذه الآية نتبينه من قوله تعالى : ﴿ لَا نَحْسَبُهُمْ شُرَّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ وهو خطاب لمن قذف وأوذي بالإفك ، وأما وصف الخيرية في ذلك فيظهر من أوجه :
(أولها : أنهم صبروا على ذلك الغم طلباً لمرضاة الله تعالى فاستوجبوا به الثواب

ثانيها : أنه لولا إظهارهم للإفك كان يجوز أن تبقى التهمة كامنة في صدور البعض ، وعند الإظهار انكشف كذب القوم على مر الدهر .

١ - سورة الأنعام ١٢٨ .

٢ - سورة هود ٦٦ .

٣ - سورة النور ١١ .

وثالثها : أنه صار خيراً لهم لما فيه من شرفهم وبيان فضلهم من حيث نزلت ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة ببراءة عائشة وشهد الله تعالى بكذب القاذفين ونسبهم إلى الإفك وأوجب عليهم اللعن والذم وهذا غاية الشرف والفضل (١) .

ويضاف لذلك أيضا أن هذا الحدث (يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله وهو خير أن يكشف الله للجماعة المسلمة بهذه المناسبة عن المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم أما الآلام التي عاناها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، والجماعة المسلمة كلها ، فهي ثمن التجربة ، وضريبة الابتلاء ، الواجبة الأداء (٢) .

الخاتمة : في ختام البحث وقد حاولنا سلوك جادة الاختصار ما أمكن فإنه يطيب للباحث تقييد بعض الفوائد ولطيف المعاني المستلهمة والمستوحاة من التأمل الإجمالي للبحث :

أولاً : المتأمل في صور الإيذاء المتنوعة التي عرضت لها الآيات الداخلة في نطاق البحث كما تستفزه هذه الصور وتثير في نفسه مشاعر الحنق على أعداء الدعوة والدعاة والمتربصين بهم السوء والمكروه فإنها من جهة أخرى توقفه على وجه آخر للبلاء في ذات الله وفي سبيل إبلاغ كلمته .. هذا الوجه وهو الذي يعد نتاجا طبيعيا لتجربة الأذية في ذات الله والصبر على مراداته سبحانه وهو ما يتمخض عن المرور بمواقف من هذا القبيل من حب متبادل بين الله وأهل دعوته وحمله رايته ومبلغي كلمته (يحبهم ويحبونه) وإذا كان لهذا الحب والود أن يتنامى ويتعزز فليس مثل التصبر والتحمل والرضاء من الداعين إلى الله وحملة رسالته محققاً لهذا الغرض، إن في ما يتعرض له أهل الله وحاملو هدايته من صعاب ومعوقات وأذى وويليات ومن ثم تسلية ربهم لهم وتصبيره إياهم ، إن في كل ذلك ما يظهر ويجلي موقعهم ومكانهم عند ربهم ومألوههم ومحبوبهم بحيث يظهر حبه ووده لهم وحنوه عليهم ولطفه بهم يظهر كل ذلك وما لا يمكن وصفه من أطياف الله بأهل حبه ووده يظهر في تسليته لهم وإشعارهم أنه يراهم ويرى ما يقع لهم وبهم من صنوف الأذية في ذاته وطلباً لمرضاته .. إن الناظر من هذه الزاوية لمنهج التسلية الإلهية لأحبابه ورسله ليكتشف أنه أمام معين لا ينضب من الحب المتبادل بين الله ومن اصطفاهم لحبه ووده ومخزون هائل عظيم من هبات وأعطيات هذه المحبة والمودة الشهيبة الرضية.

١ - مفاتيح الغيب للرازي ١ / ٣٢٩٦ ، و ينظر : الكشاف للزمخشري ، والبحر المديد ٥ / ٨٦ ، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ، المحرر الوجيز لابن عطية ٤ / ٢٠٥ ، تفسير البياضوي ٤ / ١٧٦ .
٢ - في ظلال القرآن لسيد قطب بتصرف ٥ / ٢٦٥ .

ثانياً : إذا كانت هذه النفوس الكبيرة المؤيدة بعون الله ومعيته ومعجزاته وكرمه إذا كانت هذه النفوس الكبيرة وهذا الجمع من عباد الله الكبار في عزائمهم وهممهم والعظماء في مواقفهم وتضحياتهم والأقوياء في يقينهم إذا كان هؤلاء في حاجة لتسليّة الله إياهم وإشعارهم بقربه منهم وفي حاجة ليد حانية تأسو جراحهم وتخفف آلامهم إذا كان قد تطلب الأمر في حق هؤلاء أن يكون لهم رصيد من التسليّة والتخفيف واللفظ والتلطّف فإن مقتضى في حق غيرهم أقوى والداعي أظهر وأجلى .

ثالثاً : والحقيقة أنني قد توصلت إلى معنى وأرجو من القارئ الكريم أن يتأمله ومن حقه أن يوافقني في ما ذهبت إليه كما أن من حقه أن يخالفني هذا المعنى مفاده أن النفس البشرية إجمالاً لها كما هو مقرر حاجيات وضروريات لا يستقيم عيشها بدونها ولا يستقر حالها إذا عدت وأعتقد أن من حاجيات النفس البشرية وضرورة عيشها تسليتها والتسرية عنها مما يصيبها من مصائب الدنيا وأنواع البلاء التي تنزل بها .

رابعاً : وهو وثيق الصلة بما قبله وهو أن تسليّة الله في كتابه لا تقتصر على حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم بل إن الناظر المتأمل في كلمات الله وآياته يجد في هذا الكتاب مخزوناً عظيماً من التسليّة للنفس الإنسانية عموماً حتى ليتصور لك بأن هذا الكتاب شجرة وارفة الظلال يتداعى لها المحترقون بلظى الحياة وضغوطاتها وسمومها اللافحة فيجدون في ظل هذه الدوحة السلوان ، نعم لقد جاءت التسليّة في كتاب الله لمحمد صلى الله عليه وسلم المكلف بأمانة الدعوة وحمل كلمة الله والسير في طريق هداية الناس إلى الله المملوءة بالأشواك والسلم والصعاب .. ولكن كما جاءت التسليّة له صلى الله عليه وسلم متكاثرة متواترة في كتاب الله فإن التسليّة جاءت لغيره صلى الله عليه وسلم من الناس بمختلف أحوالهم وتباين مقتضى التسليّة وسببه من شخص لآخر ومن صنف لغيره .

خامساً : لقد عرض البحث لدراسة دواع متنوعة لتسليّة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ما بين دواع هي نتاج طبيعي لعداء المشركين له ومحاربتهم لدعوته وما بين دواع هي إفراز طبيعي للنفسية الماكرة الحاقدة المتمثلة في الطابور الخامس (المنافقين) ودواع أخرى اقتضتها طبيعة الغدر والخيانة والحسد اليهودية ، بالإضافة إلى دواع أخرى لا تندرج تحت قسم من هذه الأصناف المشار إليها ، وهذا التنوع في دواعي التسليّة وما يقتضية من تنوع في وجوه تسليّة الله لنبيه عن كل هذه الدواعي تقدم لكل مبتلى في سبيل الله وكل مجاهد في طريق دعوته زادا وذخيرة عظيمة من التسليّة والتهوين لما يلقي في دربه ومسيرته ، وما عليه حينما تصيبه سهام البغي بظلم أو اعتداء إلا أن يعود لكلام الله فتطمئن نفسه ويهدأ روعه ليجد نفسه سائراً في طريق قد سلكه قبله سيد الخلق واعترضه ما يعترضه من وهاد وأشواك .

المصادر والمراجع وهوامش البحث :

أهم مصادر البحث ومراجعته :

- ١ - التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي ، طبعة مكتبة مشكاة الإسلامية.
- ٢ - مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبدالعظيم الزرقاني ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م دار الفكر - بيروت تحقيق : مكتب البحوث والدراسات.
- ٣ - في ظلال القرآن لسيد قطب ، طبعة رقم ٢٤ سنة ١٩٩٥م دار الشروق.
- ٤ - محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي ، الطبعة الثانية ١٩٧٨م دار الفكر - بيروت ، وقف على طبعه وتحقيقه محمد فؤاد عبد الباقي.
- ٥ - معالم التنزيل لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي [المتوفى ٥١٦هـ ، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش ، طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- ٦ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي ، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق طبعة مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ٧ - النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ، تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم.
- ٨ - جامع البيان في تأويل القرآن لأبي جعفر الطبري محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملبي، تحقيق : أحمد محمد شاكر الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م مؤسسة الرسالة
- ٩ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م
- ١٠ - تفسير القرآن العظيم ، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي تحقيق : محمود حسن الناشر : دار الفكر طبعة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- ١١ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، طبعة دار الفكر بيروت.
- ١٢ - التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان.